الفصل الثالث

حروف العربية بين التوزيع والتوظيف

- صفات الحروف فى اللغة العربية .
- مخارج الحروف فى العربية .
- مخارج حروف لفظ الجلالة (الله) .
- السرّ فى الحروف المقطعة فى أول السور .
- نماذج تطبيقية فى سورتى (ص) ، و (ق) .

obeikan.com

obeikan.com

● **تمهيد** (*) :

إمام النحو سيبويه وشيوخه وأصحابه رأوا أن **أصول حروف العربية** (أى الأصوات الرئيسية لحروفها) تبلغ فى عددها تسعة وعشرين حرفًا هى :

الهمزة ، والألف ، والهاء ، والعين ، والحاء ، والغين ، والخاء ، والكاف ، والقاف ، والضاد ، والجيم ، والشين ، والياء ، واللام ، والراء ، والنون ، والطاء ، والدال ، والتاء ، والصاد ، والزاى ، والسين ، والظاء ، والذال ، والثاء ، والفاء ، والباء ، والميم ، والواو .

* *

* وأحصى سيبويه **المخارج التى تخرج منها الأصوات العربية** ، فعدها خمسة عشر مخرجًا ، هى :

١ - ما بين الشفتين .

٢ - باطن الشفة السفلى وأطراف الأسنان .

٣ - طرف اللسان وأطراف الثنايا . ٤ - طرف اللسان وفويق الثنايا .

٥ - طرف اللسان وأصول الثنايا . ٦ - ما بين طرف اللسان وفويق الثنايا .

٧ - ما بين طرف اللسان وفويق الثنايا أدخل فى ظهر اللسان .

٨ - حافة اللسان إلى الطرف وما فوقهما .

٩ - حافة اللسان وما يليه من الأضراس .

١٠ - وسط اللسان ووسط الحنك الأعلى .

١١ - مؤخر اللسان وما يليه من الحنك الأعلى .

١٢ - أقصى اللسان وما يليه من الحنك الأعلى .

١٣ - أدنى الحلق . ١٤ - وسط الحلق . ١٥ - أقصى الحلق .

* *

(*) ذكرت التمهيد لهذا الفصل بالتعريف الموجز لمخارج حروف العربية وصفاتها . لنفهم ما يشير إليه ابن القيم فى هذا الفصل .

* أما صفات الحروف فهى على النحو الآتى :

١ - الشدة والرخاوة ، وما بينهما ، واللين والهوى .

٢ - الجهر والهمس .

٣ - التفخيم والترقيق ، وجعل الشداد أربعة أقسام هى :

أ - ما يمتنع معه النفس . ب - المنحرف .

جـ - الأنفى . د - المكرر .

وإليك جدول الأصوات العربية للمخارج والصفات كما رآها سيبويه :

سيذكر ابن القيم فى هذا الفصل صفات للحروف ، ربما يصعب فهمها على غير المتخصص ، فأردت بهذه التقدمة ، ذكر صفات الحروف فى إيجاز ، ليفهم القارئ العادى ما ذكره إتمامًا للفائدة ، ورسوخًا للمعنى

● **من صفات الحروف :**

١ - الجهر والهمس :

* **فالحرف المجهور** : هو الذى يمتنع معه النَّفَسُ أن ينطلق إلى الخارج ، ويهتز معه الوتران الصوتيان اقترابًا يسمح للهواء بالتأثير فيهما بالاهتزاز .

* **والحرف المهموس** : هو الذى ينطلق معه النَّفَس إلى الخارج ، ولا يهتز معه الوتران الصوتيان نتيجة انبساط فتحة المزمار ، واتساع مجرى الهواء ، وابتعاد الوترين الصوتيين عن بعضهما ابتعادًا يجعل الهواء حال مروره بينهما غير قوى . . وحروف المهموس جمعت فى هذه الجملة : (سكت فحثه شخص) والحروف المهموسة ما عداها .

* *

٢ - والشدة والرخاوة والتوسط :

* **فالحرف الشديد** : هو الذى ينحبس معه النَّفَسُ عند النطق به ، وحروفه جمعت فى هذا الضابط : وهو (أجدك قطبت) .

* **والحرف الرخو** : هو الذى ينطلق معه الهواء حال النطق به كالسين والصاد .

* **والحرف المتوسط** : هو الذى يسمح للهواء بالمرور الخفيف حال التفوه به ، وحروفه جمعت فى (لن عمر) ، وتسمى الحروف المائعة .

* *

٣ - حروف الإطباق والانفتاح :

* **الإطباق** : هو ارتفاع اللسان إلى أعلى الحنك ، حتى يصير كالطبق له ، وحروف الإطباق هى : (الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء) .

* **والانفتاح** : عدم ارتفاع اللسان إلى أعلى الحنك ، وحروفه : عدا الحروف السابقة للإطباق .

* *

٤ - الاستعلاء والاستفال :

* **الاستعلاء** : هو ارتفاع اللسان إلى أعلى الحنك عند النطق بالحرف ، وحروفه جمعت فى (خص ضغط ، قظ) .

* **والاستفال** : هو عدم ارتفاع اللسان إلى أعلى الحنك ، وحروفه عدا السابقة.

٥ - الزلاقة والإصمات :

* **الزلاقة** : طلاقة اللسان وخفته ، وحروفها (مر بنفل) ، ومتى دخل حرف منها الاسم الرباعى أو الخماسى نحكم بعربيته . . إلا ما نص العلماء على عربيته مثل : (العسجد : للذهب ، والزهزقة : لشدة الضحك ، ودهدق : بمعنى كسر) .

* **والإصمات** : هى التى لا يكتفى بها فى تركيب الكلمات ، كأنه صمت أى ترك تركيب الكلمات منها ، وحروفه عدا ما سبق .

* *

٦ – **التفخيم والترقيق :**

* **التفخيم** : هو تعظيم الحرف فى النطق حتى يمتلئ الفم بصداه ، وحروفه هى حروف الإطباق ، وهى : (خص ضغط قظ) .

* **والترقيق** : جعل جسم الحرف نحيلاً ، فلا يمتلئ لفم بصداه . وحروفه عدا السابق ذكرها .

* *

٧ – **الصفير ، والقلقلة ، والتفشى ، والتكرار :**

* **الصفير** : صوت زائد يخرج من بين الشفتين شبيهًا بصفير الطائر ، وحروفه : (السين ، والزاى ، والصاد) .

* **والقلقلة** : اضطراب الحرف عند النطق به ساكنًا ، وحروفه (قطب جد) .

* **والتفشى** : انتشار الصوت فى الفم ، وهو خاص بالشين .

* **التكرار** : تكرر الحرف على طرف اللسان ، وهو خاص بالراء .

* *

ويلاحظ أن فى الصفات المذكورة خمس صفات قوية ، وهى :

الجهر ، والشدة ، والاستعلاء ، والإطباق ، والإصمات .

ويقابلها خمس صفات ضعيفة ، وهى :

الهمس ، والرخاوة ، والاستفال ، والانفتاح ، والزلاقة .

وإذن فالحرف يحكم عليه بالقوة إذا غلبت عليه صفات القوة ، والعكس [1] . انتهى التمهيد .

* *

---

(١) لمزيد بيان راجع كتاب « التجويد والأصوات » : للدكتور إبراهيم نجا ، وكتاب : « اللغة العربية معناها ومبناها » : للدكتور تمام حسان .

● يتحدث الإمام ابن القيم هنا عن : نعمة الصوت ، وماهيته ، وكيفية تكوينه ، ووظيفته فى الأداء والبيان ، وتوزيعه ، واتساق اللفظ والمعنى ، ووضع الحرف فى موضعه من الكلمة . وإتيان المعنى على سمت اللفظ ، وخدمة اللفظ للمعنى ، ويمثل لذلك ، ويبين مخارج لفظ الجلالة . ويتعرض - بالتالى - لمعنى الحروف المقطعة فى أوائل بعض سور القرآن الكريم - مثل : ألم ، ألمص ، كهيعص ، ق ، ن ، ص . . . فى دراسة تطبيقية ، وبيان لإعجاز القرآن المجيد فى مبانيه ومعانيه . . .

يقول : (الصوت نعمة حين يتم التعارف به ، ويؤدى المطلوب - فى البيان اللفظى - وتلاشى الصوت نعمة ؛ حتى لا يمتلئ العالم به .

ومنشؤ الصوت هو أثر الاصطكاك ، لا الاصطكاك نفسه ، فهو موجب الاصطكاك ، وقرع الجسم للجسم ، أو قلعه عنه ، فسببه : قرع أو قلع ، فيحدث الصوت ، فيحمله الهواء ويؤديه إلى مسامع الناس ، فينتفعون به فى حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار ، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم) [1] .

فقد تنبه إلى أن الصوت من موجبات الاصطكاك ، وأن تلاشيه نعمة ، كما كان نعمة فى حدوثه ، والعلم الحديث يقول بأنه لا يتلاشى ، وإن كان ذلك أمل لم يتحقق بعد .

وهو يرى أن تلاشيه نعمة من الخالق كما قدمنا .

* *

● اختصاص بعض الحروف بمزية ، وتحليل (هذا) :

والمعنى واللفظ عنده متناغمان ، ويأتى المعني على سمت اللفظ ، ويخدم اللفظ المعنى فى اتساق وتناسب .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ٢٨٩

ويضرب لذلك مثلاً بأن الاسم من (**هذا**) هو الذال وحدها ، **على أصح** القولين ، بدليل سقوط الألف فى التثنية والمؤنث ، وخصت الذال بذلك لأنها من طرف اللسان ، والمشار إليه مبهم ، يشار إليه بلفظ أو بيد ، ويشير مع ذلك بلسانه ، فإن الجوارح خدم القلب ، **فإذا ذهب القلب إلى شىء ذهابًا معقولاً ذهبت الجوارح نحوه ذهابًا محسوسًا** .

* والعمدة فى الإشارة فى مواطن التخاطب على اللسان ، ولا يمكن إشارته إلا بحرف يكون مخرجه من عذبة اللسان ، التى هى آلة الإشارة دون سائر أجزائه ، (وهى) **إما الذال أو التاء** :

« فالتاء » : مهموسة رخوة ، فالمجهور أو الشديد من الحروف أولى منها للبيان ، و « **الذال** » **مجهورة** ، فخصت بالإشارة إلى المذكر .

وخصت « التاء » بالإشارة إلى المؤنث ، لأصل الفرق .

وكانت « التاء » به أولى لهمسها ، وضعف المؤنث ، ولأنها قد ثبتت علامة للتأنيث فى غير هذا الباب) [1] .

فقد بين أن « الذال » من هذا ، عليها مدار الكلام وحدها ، وعلل لذلك للإقناع .

وخص « الذال » بالإشارة ، لكونها من طرف اللسان ، وبالتالى وظف اللسان فى الإشارة كاليد وغيرها ، فهو مشير ، والذال من طرفه لتكون أوضح فى الإشارة وأبين .

وجعل الجوارح خدمًا للقلب ، وجعل إرادته معقولة ، بينما إرادة الحواس ، وفعلها محسوسًا ، ليكون منطقيًا فى حكمه وتعبيراته

والمشار إليه مبهم ، ولا بد من الإشارة إليه ، بما من شأنه أن تتأتى منه الإشارة .

---

(١) بدائع الفوائد : ١/ ١٨٠

* ويفاضل بين « الذال » فى هذا ، و« التاء » فى هذه . لتوضيح المقام بقوة . حين الإشارة ، وفضلت « الذال » الشديدة بالجهر ، على « التاء » الرخوة بالهمس .

واختصت « الذال » المجهورة بإشارة المذكر ، القوى فى جنسه ، وخصت « التاء » الرخوة بالمؤنث تفرقة للجنس الضعيف فى عموميته .

* *

● مخارج لفظ الجلالة :

* ومن هذا الباب ما ينقله عن ابن فورك ، عن مخارج لفظ الجلالة (الله) حين قال :

الحكمة فى وجود (الألف) فى أوله ، أنها من أقصى مخارج الصوت ، قريبًا من القلب ، الذى هو محل المعرفة .

ثم (الهاء) فى آخره ، مخرجها من هناك أيضًا ، لأنه المبتدأ منه والمعاد إليه ، والإعادة أهون من الابتداء .

وكذلك لفظ « الهاء » أهون من لفظ الهمزة)[1] .

وهذا توظيف للحروف فى واقع ومعقول .

* *

● تطبيقات أخرى :

يقول رحمه الله تعالى :

* تأمل سر (ألم) ، كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة :

« فالألف » إذا بدئ بها أولاً كانت همزة ، وهى أول المخارج من أقصى الصدر[2] .

و« اللام » ، من وسط مخارج الحروف ، وهى أشد الحروف اعتمادًا على اللسان .

---

(١) بدائع الفوائد : ١/ ١٨٠ .

(٢) حروف الحلق (الصادرة) من أقصى الحلق ستة ، نظمها بعضهم فى :
همز ، فهاء ، ثم عين ، حاء مهملتـــــان ، ثم غين خاء

« والميم » ، آخر الحروف ، ومحرجها من الفم .

وهذه الثلاثة هى أصول مخارج الحروف ، أعنى : الحلق ، واللسان ، والشفتين . وترتيب فى التنزيل : من البداية ، إلى الوسط ، إلى النهاية .

وهذه الحروف (الألف واللام والميم) معتمد المخارج الثلاثة ، التى تتفرع منها ستة عشر مخرجًا ، فيصير منها تسعة وعشرون حرفًا ، عليها مدار كلام الأمم الأولين والآخرين ، مع تضمنها سرًا عجيبًا :

وهو أن « للألف » البداية ، و« اللام » التوسط ، و« الميم » النهاية .

فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما .

وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة ، فهى مشتملة على بدء الخلق ، ونهايته ، و« توسطه » فمشتملة على تخليق العالم وغايته ، وعلى التوسط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر . . .

فتأمل ذلك فى سور : البقرة ، وآل عمران ، وتنزيل السجدة ، وسورة الروم ،

* *

*** وتأمل اقتران « الطاء » بـ « السين » ، و« الهاء » فى القرآن :**

فإن « الطاء » جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها . وهى : الجهر ، والشدة ، والاستعلاء ، والإطباق .

و« السين » مهموس ، رخو ، مستفل ، صفيرى ، منفتح .

فلا يمكن أن يجمع إلى « الطاء » حرف يقابلها كـ « السين » ، و« الهاء » ، فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف .

* *

*** وتأمل السور التى اشتملت على الحروف المفردة** ، تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف .

فمن ذلك « ق » ، والسورة مبنية على الكلمات « القافية » (أى تكرار القاف) من ذكر القرآن .

وذكر الخلق ، وتكرير القول ، ومراجعته مرارًا ، والقرب من ابن آدم ، وتلقى الملكين قول العبد ، وذكر الرقيب ، وذكر السائق والقرين ، والإلقاء فى جهنم ، والتقديم بالوعيد ، وذكر المتقين ، وذكر القلب ، والقرون ، والتنقيب فى البلاد .

وذكر القيل مرتين ، وتشقق الأرض ، وإلقاء الرواسى فيها ، وبسوق النخل ، والرزق ، وذكر القوم ، وحقوق الوعيد ، ولو لم يكن إلا تكرير القول والمحاورة .

* وسر آخر ؛ وهو : أن كل معانى هذه السورة مناسبة لما فى حرف « القاف » من الشدة ، والجهر ، والعلو ، والانفتاح .

* *

* وإذا أردت زيادة إيضاح هذا ، **فتأمل ما اشتملت عليه سورة « ص »** ، من الخصومات المتعددة .

فأولها : خصومة الكفارمع النبى ﷺ وقولهم : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ (١) إلى آخر كلامهم .

* ثم اختصام الخصمين عند داود عليه السلام .

* ثم تخاصم أهل النار .

* ثم اختصام الملأ الأعلى فى العلم ، وهو الدرجات والكفارات .

* ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه فى أمره بالسجود لآدم .

---

(١) سورة ص : ٥

* ثم خصامه (إبليس لعنه الله) فى شأن بنى آدم ، وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم .

* فليتأمل اللبيب الفطن ، هل يليق بهذه السورة غير (ص) ، وبسورة (ق) غير حروفها ؟!

وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف ، والله أعلم [1] .

* *

● **سر ترتيب الحروف :**

فالألف إذا بدئ بها أولاً كانت همزة .

وأشار إلى أن أول مخارج الحروف ما يخرج من أقصى الصدر ، أو ما يسمى بالحروف الحلقية ، وهى (كما مرّ) :

همز فهاء ثم عين حء مهملتان ثم غين خـاء

وينتقل من أقصى الحلق أو الصدر إلى الشفتين أو الفم كما أشار ومش بالميم قسيمة الباء فى هذا المخرج .

ثم أشار إلى الوسط بين الطرفين وهو اللسان ، الذى تعتمد عليه أشد الحروف ، وهى اللام .

فذكر الحلق ، ومر باللسان ، وانتهى بالشفتين أو العكس ، فى لأماكن الثلاثة .

ومن هذه المخارج الثلاثة تتحرك الحروف على مدرجها ، لترينا ستة عشر مخرجًا ، تنتج تسعة وعشرين حرفًا ، عليها مدار الكلام كلها ، كما سبق .

وجعل الحروف الثلاثة فى (أ . ل . م) المتضمنة للبداية والتوسط والنهاية

---

(١) بدائع الفوائد : ٣/١٧٣ ، ١٧٤

ممثلة لبداية الخلق ونهايته وتوسطه ، أو على تخليق العالم فى بدايته ، ونهايته فى غايته ، والتوسط فى التشريع والتكليف والأوامر والعمل .

ونبه على أننا لو راجعنا سورة البقرة ، وآل عمران ، وتنزيل السجدة ، وسورة الروم ، وكلها ابتدأت بقوله تعالى : (ألم) ، لوجدنا معانى هذه السور تتحدث عن البداية ، والنهاية ، والغاية ، ثم توسط التشريع فى الأوامر ، والنواهى [1] .

* *

* وذكر أن لاقتران الحروف المقطعة فى أول السور سرًا فى الجمع ، يجمع بين صفات الحروف فى تناسق لطيف ، يتطابق فيه ما تتصف به الحروف من ضعف أو قوة فى توازن هندسى ، يقول :

تأمل اقتران الطاء بالسين والهاء فى القرآن الكريم .

فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات ، لم يجمعها غيرها ، وهى : الجهر ، والشدة ، والاستعلاء ، والإطباق .

بينما السين حرف مهموس رخو مستفل صفيرى منفتح .

فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء .

* *

---

(١) راجع سورة السجدة - مثلاً - من ١ - ٩ لبدء الخلق ، ومن ١٠ - ٢٧ لبيان صفات المجرمين ، وصفات المؤمنين ، والآيات من ٢٨ إلى آخر السورة ، لبيان النهاية والرجوع إلى الله تعالى .

وراجع على سبيل المثال أيضًا : سورة البقرة من أولها حتى آية ٣٨ للحديث عن بدء الخلق ، ثم آيات التشريع للصلاة ، والقبلة ، والحج ، والصيام ، والأهلة ، والطلاق ، والحيض ، والقتال ، والإنفاق من أول آية ٣٨ حتى آية ٢٨٣ ، ثم النهاية ، والختام والآخرة من ٢٨٤ حتى آخر السورة .

فذكر الحرفين اللذين جمعًا صفات الحروف ، من قوة وضعف .

وعنى بالتطبيق فذكر دراسة مقتضبة عما تضمنته سورة (ق) ، وسر البدء بهذا الحرف . وكل المعانى التى ذكرها تدور حول ما يتناسب مع صفات حرف (القاف) وكلها أوجلها معانى تتطلب القوة والشدة من :

* إلقاء الرواسى فى الأرض ، وشموخ النخل وبسوقه ، وسوق الرزق للعباد ، وتنقص الأرض منهم .

وفوقية السماء ، ودأب الأقوام فى تكذيب الرسل ، وحق الوعيد ، وتنقص الأرض منهم ، والقدرة على البعث .

* كما كانت القدرة فى خلق الإنسان من لا شىء ، والحديث عن سكرة الموت ، وتمكن القرين ، وقهر كل جبار عنيد ، وإلقائه فى العذاب الشديد ، وحوار جهنم ، وإحكام القول ، وتنقيب الأشداء فى البلاد ، والاستعداد لإطلاق الصيحة ، وتشقق الأرض ، وزوال العمران ، والتذكير بالقرآن فى المبدأ ونهاية السورة . . .[1] إلخ .

فلا عجب أن يتكرر حرف « القاف » الذى بدأت به السورة الشريفة قرابة الستين مرة .

* وذكر نماذج لمثل هذه الدراسة عن سورة (ص) ، والمعانى التى تتضمنها السورة ، والتى طابقت صفات حرف الصاد . . .

وحبذا لو احتذى محتذ لمثل هذه الدراسات فى القرآن الكريم ، فى السور التى افتتحت بالحروف ، لتضيف إلى علمنا ببلاغة القرآن أشياء جديدة ، وآفاقًا واسعة ، تثرى الدراسات القرآنية ، وتجلى عبقرية اللغة العربية ، وحكمتها وفصاحتها فى دنياها الثرة والعجيبة .

* * *

---

(١) إذا تأمل قارئ القرآن الكريم وفكر . . . يجد بدايات كل سورة مطابقة لما تختم به سورة .